رحلتنا

فى المرآة

أسفر صبح الجمعة فى السابع والعشرين من يناير ، وقد احتلّ أعضاء الرحلة ميدان الأوبرا ، وعسكروا فى منطقة تتوسط الميدان — كانت العربات المعدة لهم قد شغلتها قبيل مطلع النهار ، ثم أشرفوا على جنبات الميدان يملأ المرح نفوسهم ، وينساب النشاط فى أعصابهم ، ويثير انتباههم مرأى رئيس الرحلة الأستاذ شفيق بك غربال ، وهو يقبل سريعا ويدبر خفيفا ، بَاسِم الثغر فى سرواله القصير ونشاطه الموفور .

وترقب الجميع مقدم العميد — الدكتور طه بك — إلى ساحة الأوبرا ليودع أبناءه قبل الرحيل ، فلما أقبل عليهم خفّوا لاستقباله ، وسارعوا للحفاوة به ، شاكرين له هذا الفيض المألوف من عطفه وحنانه . .

وانطلقت فى طريق السويس خمس عشرة سيارة صغيرة ، وعربتان كبيرتان تحملان طعام الأعضاء وشرابهم وخيامهم وسائر ما يحتاجون إبان أيام الرحلة العشرة ، ومع الطعام والشراب أربعة من الخدم والطهاة ... نعم قد صحب الرحلة طاهيان على الرغم من اقتراح ظريف ، عرضه أستاذنا الدكتور طه فى اجتماع عقده الأعضاء قبل قيام الرحلة بيوم ليزودهم بنصائحه وإرشاداته ، إذ قال حين عرض ذكر الطهاة : ولماذا الطهاة . . ؟ الرأى عندى أن يقوم الطالبات بأعداد الطعام ، وأن يؤدى الطلبة عمل « المرمطونات » - النُّدل - فقال لعزته أحد الطلبة : ومن يتولى أكل الطعام . . ؟ قال : يتولاه الأساتذة . . . !

وفى منتصف الساعة الثانية بعد ظهر اليوم نفسه بارحنا السويس ، واتجهت بنا السيارات فى طريق صحراوى ممتع ، ثم انطلقت إلى الجنوب محاذية فى مسيرها شاطىء البحر الأحمر ، وتأهبت « فرقة التفاريح » فى عرباتها لأعداد

الأناشيد والأغانى التى يصفون فيها أول يوم من أيام الرحلة — فيتناولون بالفكاهة الحلوة والنكتة اللاذعة ما يشاهد الأعضاء من مناظر ، وما يقع لهم من أحداث ، وما يلفت النظر فيهم من تصرفات ...

الأستاذ شفيق غربال

ومر الركب فى طريقه بالعيون الساخنة ، وعلى كثب منها والسيارات منطلقة فى طريقها تنهب أرض الصحراء حيناً وتترفق بها أحياناً ، قد حطّ الليل رحاله ، ونشر على الصحراء الرحب جناحه ، فنزل الركب فى منطقة تقع بين الجبل وساحل البحر وعسكر فيها الأعضاء ...

وقد صاق أحد أصدقائنا بهذا الليل الذى اضطرنا مقدمه إلى أن نمر بالعيون الساخنة دون أن نقف عندها ونطيل الوقوف لكى نسرح الطرف فى جمالها الفتان ، ولكن الدكتور نصحى قد خفف عن الصديق ألمه ، وكشف له عن حقيقة هذه العيون فاذا هى عيون عادية إلى أقصى الحدود ، لا يلتف

حولها الرمش الطويل ، ولا يعلوها الحاجب الجميل ، ولا يزينها الكحل البديع ، وليس فى طرفها حَوَرٌ قتال ولا سحر فتان ، ولا شىء قط مما ظنه الشعراء جميعا ـ قدماء ومحدثون ..!

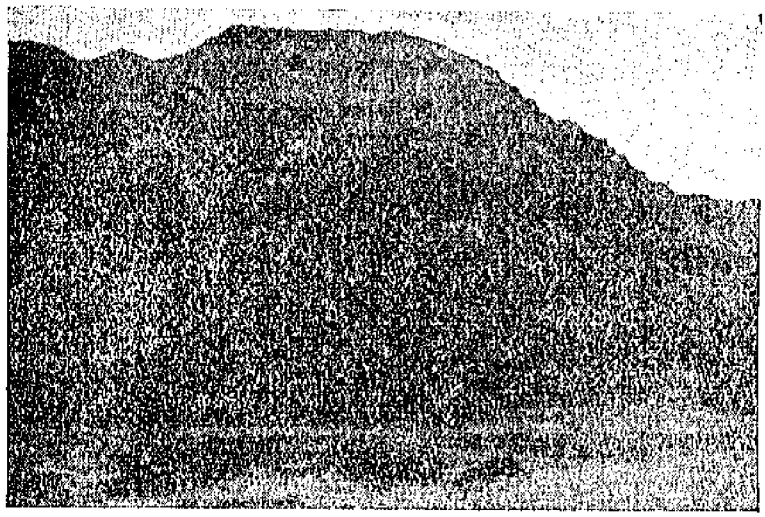

جبال القلالة الشمالية قرب العيون الساخنة ، حيث قضى أعضاء الرحلة الليلة الأولى

أقام الاعضاء خيامهم فى المنطقة التى أسلفنا الاشارة إليها منذ حين ، وانطلقوا يتجولون على شاطىء البحر ويسرحون الطرف فى رحاب هذه هذه الطبيعة التى استطاعت أن تفتن بجمالها الشعراء فى شتى العصور ، ولكنها — والحق يقال — قد عجزت عن أن تفتن أعضاء الرحلة حتى تنسيهم الجوع الذى كانوا يحسونه ..! أجل فقد قيل لأعضاء الرحلة هاتوا طعام ظهر اليوم الأول معكم فلن تذوقوا طعام الرحلة إلا فى المساء — والحكمة فى هذا علمها عند الله وعند الأستاذ شفيق بك — وظن أن العشاء سيكون « عندما يأتى المساء » .. ولكن المساء قد أتى وأطال المقام بيننا حتى ضقنا به وضاق بنا ... ولا عشاء هناك ... وفرقة التفاريح تطلق حناجرها بين الحين والحين بهذه الأغنية التى لا يُعرف لها وزن وإن كان فيها بعض التعبير عما يحسون :

« احنا جعنا . عاوزين ناكل . ياطباخين فين العشا . الأكل طاب واستوى وليه ماجاش العشا ... » .

وأخيرا سرى بين خيام المعسكر نبأ العشاء . واهتزت الخيام من فرط الرضا والاطمئنان ، ولكن الأعضاء تبينوا بعد قليل أن هذا النبأ إشاعة ...! وكان الأستاذ زكى على « معاون الاعاشة » كلما استفسر منه الاعضاء عن العشاء أخذ « يغذيهم » بالاطمئنان ويزودهم بالصبر ، ويؤكد لهم أن العشاء آت لاريب فيه ... وقد رأى ثلاثة منا يلازمهم الصمت ويحويهم الهدوء ، فأخفى مظهرهم مانطوى عليه نفوسهم من سغب وضيق فسرّ شاهم بقليل من الخس الذى بقى بعد إعداد « السلطة » عساهم ينتشرون بين الأعضاء ، ويؤكدون لهم اقتراب موعد العشاء . ورغم أن هؤلاء الثلاثة قد قبلوا الرشوة شاكرين وانصرفوا عنه راضين ، إلا أنهم لم يؤكدوا لزملائهم اقتراب العشاء لأنهم كانوا فيما يظهر لايحسنون الترويج للاشاعات .

واشتد الطوى بأهل الوقار من أعضاء الرحلة ، فانتدبوا عن خيمتهم صديقنا محمد محمد توفيق ليتصل بالطهاة وينشد لهم بعض أناشيده الفياضة بالحماس (من نوع : طعامنا الثريد — إنه غذاؤنا الوحيد ... الجسم سمهرى ... الرأس عبقرى ...) إلى غير ذلك مما يبعث النشاط فى الطهاة ويحملهم على الاسراع فى الفراغ من إعداد الطعام فى وقت قصير ؛ ومضى صديقنا ثم لم يلبث أن عاد إلينا وأنبأنا بسر عودته السريعة وبهجته الواضحة ، فقال إنه ذهب إلى الطهاة وتهيأ لانشاد نشيد حماسى رائع — ومن عادته إذا همّ بالانشاد أن يبدأ بهز ذراعه اليمنى من الرسغ إلى الكتف هزا عنيفا ، ويحرك جسمه السمهرى ورأسه العبقرى حركة عنيفة ولكنها منتظمة ، ثم يفتح فاه ويشرع فى إنشاد النشيد .. ! والظاهر أن صديقنا قد قام بهذه التمهيدات كلها على كثب من الطهاة ، ثم همّ بانشاد النشيد وإعلانهم فى شىء كثير من القسوة والمرارة بأن طعامنا الثريد لأنه غذاؤنا الوحيد ، ولكنه لاحظ أن الآنسات قد آحتطنَ بنضد وأخذن فى المساهمة بجد ونشاط فى إعداد الطعام ، فأوقف تحريك الجسم السمهرى ، وأرسل إليهن نظرة العبقرى ، ثم عاد إلينا

وقص علينا ماشهد ، ثم سكت قليلا وسرح به الفكر طويلا ثم قال : والله ياأصحابى إن منظرهن مقبلات على إعداد الطعام لأمتع وأجمل ألف مرة من منظرهن مكبات على قراءة الكتب ..!

وبعد أن يئس الأعضاء من مجيء العشاء ، وتحول اليأس فى نفوسهم إلى اطمئنان ، واستحال القلق إلى برد واستسلام ، أشيع فى منتصف العاشرة مساء بأن العشاء سيوزع على الخيام ، وذهب مندوبو الخيام ثم عادوا وفى يد كل منهم صحفة مملوءة حساء ، ولكن الغريب حقا أن أعضاء الرحلة بعد هذا الجوع كله قد قدموا هذا الحساء إلى رمال الصحراء ..؟ قدموه إلى الرمال شرابا هنيئا بعد أن ذاقوه وعرفوا أنه مصنوع من ماء البحر الملح الأجاج ..! اطمأنوا على طعمه قبل تقديمه فما كان ينبغى أن يجودوا على الرمال بشىء مشكوك المذاق ..! والظاهر أن الأعضاء قد اكتفوا بهذا مظهراً لكرمهم مع المنطقة التى اعتزموا المبيت بها ، والتهموا بعد هذا كل ماقدم إليهم من ألوان الطعام . وشغل الطعام أعضاء الرحلة ولهاهم عن جمال الطبيعة وصرفهم عن كل شىء سوى طالب واحد ، عرفناه منذ هذا المساء نشيطا مهذبا كأحسن مايكون الشاب النشيط المهذب ، أخذ يمر بالخيام مستفسرا عما يحتاج إليه الأعضاء من خبز أو شواء — ذلك هو محمد دين السعران أحد طلبة كلية الآداب بالاسكندرية .

ولما انتهى العشاء انطلق الأعضاء إلى البحر حاملين الأطباق التى تناولوا فيها العشاء ليزيلوا عنها ماعلق بها من أدم الطعام ، ولكن مياه البحر لاتذيب الصابون ، ورمال الصحراء لاتجدى فتيلا ، وكلما أسرفنا فى العناية بغسل هذه الأطباق عرفنا أن جهودنا فى ذلك تضييع هباء منثورا ؛ حقا لقد كانت عملية الغسل أشق مامر بنا من متاعب ، لم يزعجنا الجوع ، ولم يخفنا البرد ، ولم يقلقنا ضلال الطريق ، ولم يرهبنا نوم العربات بقدر ما كان يزعجنا غسل الأطباق ..! وقد اقترح صديقنا الدكتور حسن عثمان أن نلقيها خارج الخيام

فاذا أصبح الصباح جفّ مابها وزايلتها اللزوجة وثابت إليها النظافة ، وأيّد الاقتراح « وكيل ابن حنبل » — صديقنا رزقانه — وكان معنا فى الخيمة ، قائلا : إن الشيء النجس إذا جف أصبح طاهرا ، وبالقياس المباح عند الفقهاء نقول إن الشيء القذر إذا جفّ أصبح نظيفا والله أعلم ... وسلمنا بفتواه ، ولم تزعجنا هذه القذارة بقدر ما كنا نخشى انكشاف أمرها أمام سائر الأعضاء ...!

وعدنا من غسل الأطباق فاذا فرقة التفاريح قد أشعلت النار فى وسط المعسكر وسارع الجميع إلى مجلس النار ، ووزعت الحلوى فى بداية المجلس ، ثم بدأت الفرقة تغنى وتنشد وقد أتخمها الطعام فاعتراها الركود ودب إليها النعاس ؛ وقد حاول الدكتور نصحى أن يدفع الحاضرين إلى المساهمة معها فلم يوفق كثيراً ولا قليلا ، فضاق بهم وعجب لأمرهم لأنهم آثروا الاشتراك فى رحلة البحر الأحمر وكانوا خليقين حقاً برحلة سيوه . . ! !

وعلى هذا فقد عدنا إلى الخيام وقد كاد الليل أن ينتصف ، ونوينا أن ننام — والاعمال بالنيات كما يقولون . كان فى خيمتنا ثمانية أطلقت عليهم « فرقة التفاريح » فيما بعد « شلة الوقار » ويشهد الله أن الوقار قد زايلهم فى هذا المساء فما كفوا عن الضحك ولا انقطعوا عن المرح حتى آذن الليل بالمغيب . وكان الاستاذ توفيق اسكندر قد بكر فى المنام فلما عادوا إلى الخيمة كانت اليقظة قد ثابت إليه ، فحملهم على السهر معه حتى أقضوا مضجع الخيام المقامة على كثب منهم وفيها خيمة الرئيس - فزارهم وألمّ بهم كما يلم الطيف فى حلم جميل ، وسألهم فى لطف بالغ عما أسلفوا من نكات ليساهم معهم فى الابتهاج والضحك .

وخذتنا سنة متقطعة من النوم ، فما كان من الميسور لأحد منا أن ينام نوماً متصلا وأصحابه إلى جواره لا يجدون وسادة يريحون اليها رءوسهم ،

فينطلق شخيرهم داوياً فى الخيمة يرج كيانها ويزلزل الارض التى يستقرون على أديمها . واستيقظنا على فرقة التفاريح تغنى داخل خيمتها ـ أو هكذا خيل إلينا ، فما كنا نسمع غناء بل تهريجا متصلا وصياحاً مستمرا لا يحمل بعضه معنى مفهوما . وكان أوضح ما سمعناه : « آه يا عاشور إن شالله تموت وتخر الدم . آه . . » ولا تكاد تسمع آه هذه حتى تسمع فريقاً آخر منهم يقول : « لالالا . . إذا الشمس طلعت واحنا فى السرير . تصحينا ماما خشية التأخير ، ونغسل وجوهنا ونسرح شعورنا ونلبس هدومنا وناخد الفطور لالا لا . لالا لا . . . »

وبارحنا خيامنا وطلعنا على الشمس يملأنا النشاط وتنساب اليقظة فى أعصابنا وتتمشى الحياة فى نفوسنا . وكأن اللحظة القصيرة التى أغفت فيها عيوننا قد ردت إلينا كل ما كان يعوزنا من راحة ونشاط .

وانطلق الاعضاء فى هذا الصباح الباكر إلى الخوان الممدود والتفوا حوله وقوفاً ليتناولوا طعام « الفطور » وفى يد كل منهم طبقان وملعقة وسكين و « شوكة » وسرعان ما فرقوا بالمدى شمل الخوان ووارووا البطون ما علاه من الجبن والزيتون والحلوى والبيض وما إليه ، وتركوه نضدا ممتدا يشهد بظلم الانسان لما صنع أخوه الانسان . . . . ومن الانصاف أن نعترف بأن الامام الذى كان لا يشق له غبار فى هذا الميدان هو صديقنا عزت عبد الكريم .

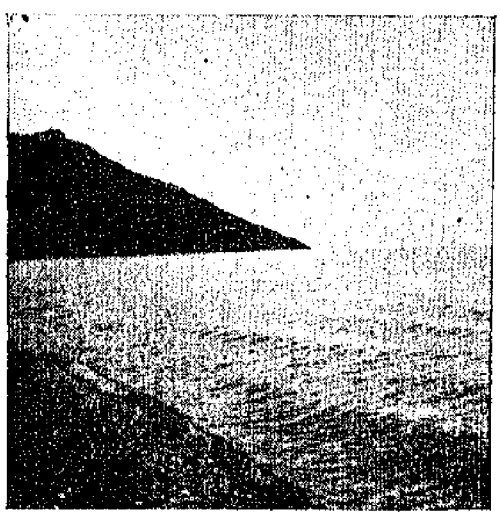

شاطىء البحر الأحمر
بالقرب من منطقة العيون الساخنة

وفى الثامنة من صباح السبت (٢٨ يناير) هم الركب بمواصلة المسير ولكن رئيس

الرحلة أو قفه وأعلن الأعضاء استياءه ، وما كدنا ندهش لهذا الاستياء حتى أعلن الرئيس بأن هذا المكان الذى عسكرنا فيه وإن كان قفرا صحراويا قلما يمر به مار إلا أنه كان جميلا عند ما نزلنا به ، وقد عكرنا صفاءه وشوهنا جماله بما خلفنا فيه من فضلات الطعام وقشر البرتقال وبقايا الخس وغيره ...! وما هكذا ينبغى أن يفعل الجامعيون . . . وأحاط الأعضاء بالمنطقة صفوفا ثم أخذوا يجمعون هذه الفضلات بانتظام وحفروا لها فى باطن الارض وأشعلوا النار فيما يقبل الاشتعال منها ، ثم واروا بقيتها التراب . . .

ومضى الركب فى طريقه حتى بلغ فنار أبى الدرج فى منتصف الثانية عشرة ظهرا ، واستقر بنا المقام عنده نحو ساعة زرناه فيها وتناولنا طعام الظهر الذى وزع علينا فكان «سردينا» وجبنا وزيتونا وتونه ... ثم انطلقت بنا السيارات الى فنار الزعفرانة ، ولكن الطريق كانت رملية ، فما كانت السيارات تمضى بضع خطوات حتى تغوص فى الرمال ولا تستطيع حراكا ، ولا يكاد ركابها يترجلون لانقاذها حتى يسمعوا ضحكات زملائهم فى عربة أخرى قد لصقت بالأرض واستعصى عليها المسير ... وهكذا حتى كانت العربات فى بعض المناطق تكاد تغوص فى الرمال جملة .. وكان سائق سيارتنا أمهر السواقين وأحبهم إلى مواضع الزلل . . ! ! ذلك هو « الأسطى أمين » — كان معنا منذ عامين فى رحلة فلسطين وشرقى الأردن فكان مثار الضحك من أعضاء الرحلة وموضع العناية من «فرقة التفاريح» وقد أوصوا بمجيئه فى رحلة البحر الأحمر ليكون من مسليات الرحلة وبواعث البهجة فيها ..! وكان من حظنا أن نكون فى عربته . . . كان ينظر إلى الطريق عن بُعد فيعرف — بفطنته — الاتجاه الرخو كما يعرف الطريق المأمون ، فيمضى إلى الأول وكأنه يتعمد المسير فى الطريق الرملى الكفيل بإيقاف عربته وتعطيلها عن المسير . . . !

وبلغنا فنار الزعفرانة بعد أن تقدم الليل وعزت مواصلة المسير ، وخلفنا وراءنا العربتين الكبيرتين غائصتين فى الرمال بما تحملان من خيام وطعام

وشراب ، فاتخذنا عرباتنا سُرُراً للنوم فيها ونحن جلوس بملابس النهار ، وأحكمنا اغلاقها اتقاء للبرد ، ونسينا طعام العشاء حتى لم يَجْرِ ذكره على لسان ؛ وما فائدة الحديث فى شأن الطعام والبحر أمامنا والصحراء من ورائنا . . ؟ والواقع أن الرحلة قد حفلت بالمتاعب ، ولكن روحها الخفيفة قد أضعفت أحساس الأعضاء بمتاعبها ، بل استبدلت بمتاعبها بهجة ولذة ومتعة ، فقد يبدو للقارىء أن نوم الانسان — المترف إلى حد ما — فى عربة جالسا بملابسه المألوفة شىء متعب ثقيل ، ولعله يدهش إذا عرف أن أحدا من أعضاء الرحلة لم يبد لهذا استياء ولا تبرما ؛ إن متاعب الرحلة كانت تتحول على ألسنة الأعضاء نكاتا وفكاهات ، وفى تصرفاتهم مرحا وبهجة ومتعة . . .

بعض أعضاء الرحلة يستريحون بالزعفرانة

واستيقظ الأعضاء فى الصباح الباكر وانطلقوا يتهادون على شاطىء البحر ويتجولون فى رحاب الصحراء ، ولبثت مع فريق من الأعضاء على كثب من الفنار نشغل أنفسنا بالحديث الهادىء والجدل الرفيق ، ومضت عنا الآنسة أمينة لطفى وسرعان ما عادت وأخذت فى توزيع ألوان من الحلوى « والبسكويت » ، وعبثا حاول الأستاذ العبادى والدكتور عفيفى أن يقنعاها بأن تقتصد فقد ينفع هذا يوم لا ينفع الندم . . ! وللحقيقة والتاريخ وحدهما

نقول إن الآنسة بهية لطفى لم تكن حاضرة عند توزيع هذه الحلوى . . !

وأرسل الأستاذ شفيق بك فى طلب الأعضاء ليحتسوا الشاى الذى استعاره من موظفى الفنار ، ودخلنا غرفة الشاى فاستلفت نظرنا منظر الآنسة أمينة طه حسين وقد وقفت أمام مغسل فى الحجرة وشمرت عن ساعدىّ الجد وراحت تغسل فناجين الشاى وأطباقها ، ثم ترغى الصابون وتعيد الغسل ثانية وثالثة وهى لا تكاد ترى أحداً منا لفرط العناية وشدة الانهماك ، ونحن وقوف ننتظر ؛ فقد كان منظرها فى هذه اللحظة يؤكد لنا بانها لن تأذن قط لأحد — كائنا من كان ، وبالغا ما بلغت مكانته — أن يساهم معها فى أداء هذا العمل . . . !

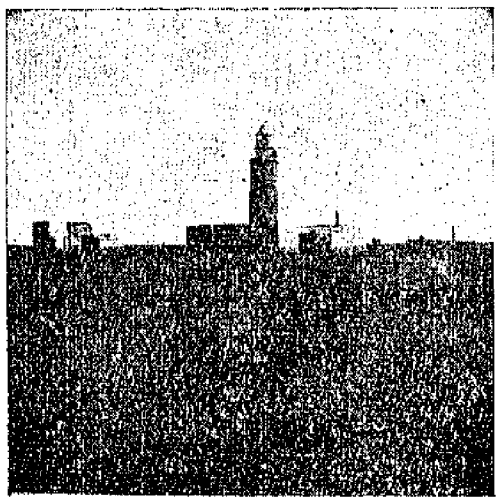

فنار الزعفرانة

كنت قد دخلت غرفة الشاى مع نفر من أعضاء الرحلة متأخرين ، فلاحظنا أن فى وسط الغرفة نَضَدًا فوقه كمية لا بأس بها من الكعك ، وهو بغير شك ملك خاص لاحدى الآنسات — أظنها سامية — وإن كان وضعه على النضد على هذا النحو يوهم الرائى بأنه مشاع بين الجميع . . ! فأشار أحد الزملاء بأن نعتدى على هذا الكعك ولا نستفسر عن صاحبه حتى نفرغ من هذا الاعتداء ، فاذا عرفنا اسم صاحبه بعد ذلك قدمنا إليه الاعتذار عن تسرعنا فى الاعتداء قبل التأكد من وضعه على هذا النحو ، ووافق البعض على هذا بشرط أن نترفق فى العدوان ، واعترض البعض على الاقتراح وتعديله ، وهمّ البعض بتنفيذ الاقتراح فهددهم المعترضون باعلان الحقيقة ، وبهذا وحده سلم الكعك من عدوان المعتدين . . . ! وأظن أن الأستاذ عزت عبد الكريم كان أكثرنا ضيقاً لهذه النتيجة . . . !

ولبثنا بعد هذا ننتظر مقدم العربتين اللتين تخلفتا بالطعام والخيام حتى وصلتا فى منتصف الحادية عشرة من صباح الأحد — ٢٩ يناير — ثم مضينا إلى زيارة دير القديس انطونيوس قبيل الظهر ولقينا الشيء الكثير من حفاوة وسخاء رهبانه ، الذين جالوا بنا فى أهم أنحائه . وقد كان من أعجب ما رأيناه فى هذا الدير ، تلك العين التى تنبع فى أحد جوانبه فتستل من الأرض الحجرية ماء نقياً ، يمكنهم من العيش فى رحاب هذه الصحراء الرهيبة . ثم عدنا إلى الزعفرانة عقب الغروب . وفى صباح الاثنين (٣٠ يناير) كان عيد الأضحى فانطلقت بنا السيارات إلى الغردقة ، ومررنا فى الرابعة مساء بمدينة غريب — أو غارب كما يسميها أهلها — وأقمنا بها نحو ساعة عرفنا منها أنها مدينـــة صغيرة حديثة العهد قد أدى إلى نشأتها كشف ينابيع جديدة للزيت ، وينبغى أن نشير مع الأسف إلى أن الشركات الاجنبية — والاجنبية وحدها — هى التى تنقب عن الزيت والسماد وما إليهما فى هذه المناطق المصرية .

ولم نطل المقام فقد وطدنا العزم على مواصلة المسير مساء حتى نبلغ الغردقة ، ومضينا فى سبيلنا لا يعوقنا ليل ولا تعرقل مسعانا وعورة الطريق ، ولكن العربات قد ضلت طريقهـــا وأخذت تتسابق فى الغوص فى جوف الرمال وتتنافس فى التعمق فى باطنها حتى أجهدنا إنقاذها إجهاداً عظيما ، ولم نقو على إنقاذ العربتين الكبيرتين فخلفناهما وراءنا بما تحملان من خيام وطعـام وشراب . وفى منتصف العاشرة من مساء يوم العيد كنا فى قلب الصحراء ، نعانى البرد ولا نكاد نحس له لذعا ، ونعرف انا ضللنا الطريق ولا نكاد نشعر بأن للتيه رهبة أو روعا ، ونعلم أنا لم نذق منذ الظهر طعاماً ولا نكاد نحس بأن للجوع ألماً ؛ كان يملأنا المرح ويحنو بنا الرضا ولا يطوف بخواطرنا إلا الأمل الباسم ، ولا يتردد على ألسنتنا إلا الفكاهة الحلوة أو النكتة اللاذعة . وقد كان فى عربة الدكتور نصحى مذياع — راديو — فالتففنا حولها ننصت

إلى أم كلثوم وهى ترسل إلينا أنغامها الحلوة على جناح الأثير ، وسمعنا المنصتين إليها فى القاهرة يطلقون حناجرهم بالهتاف لها ، وإعلان الإعجاب بها كلما انتهت من غناء فقرة من فقراتها ؛ فلاحظ صديقنا « الزيات » أننا ننصت إليها فى وقار لا مبرر له ، وأن من واجبنا نحن أيضاً أن نحييها بالتهليل والضجيج ؛ ولكن الآنسة أمينه فهمى لم ترقها هذه الملاحظة فقالت : وعلام نحييها .. ؟ إن الذين يحيونها الآن — فى مساء عيد الاضحى — قد أكلوا فى الظهر « كبدة » وفى المساء « لحمة » ، وقد مكنهم هذا من التمتع بجمال صوتها وحسن أنغامها ، وسيعودون إلى بيوتهم بعد الأنصات إليها فينامون نوماً مريحاً هادئا لذيذاً ، فلماذا لا ترتفع ألسنتهم بتحيتها . . ؟ أما نحن فلماذا نحييها . . ؟ جوع وبرد وضلال طريق ونوم متعب ، والأغانى الجميلة لا تشبع الجائع ولا تدفىء البارد ولا تهدى الضال ولا تريح المتعب . . . . ! وذلك رغم ما كانت تبديه الآنسة من فرط الرضا بالرحلة والاغتباط بمفاجآتها .

وما كدنا ننقذ العربات التى غاصت فى الرمال حتى أقبل علينا من فضاء الصحراء اثنان من الأمريكان وتطوعا لمعونتنا وبذلا من الجهد ما يستحق الثناء . . . . وواصلنا المسير طوال الليل — ونحن أيقاظ — ولم نبلغ محطة الغردقة إلا فى مستهل الرابعة صباحاً . . ! ومن الخير أن نقول إن صديقنا الأستاذ ابراهيم أمين قد قام فى هذه الليلة بمهمة نائب الرئيس — أو صبى الرئيس كما أطلقت عليه فرقة التفاريح — فأحسن القيام بها وأداها على أكمل وجه مستطاع ، وقد كان — كعادته — يجمع بين الظرف والنشاط وحسن التصرف — وأسفر الصبح فاذا نحن أيقاظ نعجب لما نحسه من نشاط ومرح واطمئنان ، ولبثنا بغير طعام حتى وزع علينا الدكتور كامل منصور أحد أساتذة كلية العلوم شاياً وبلحا .

ومن الخير أن نقول الآن إن هذا الروح الطيب الذى كان يشيع فى نفوس الأعضـــاء طوال الرحلة — ولا سيما إبان الأزمات —

مردّه ، أولا وآخراً إلى رئيسها الأستاذ شفيق بك ، إن لكلماته القليلة وتصرفاته الحازمة أثرها فى نفوس الأعضاء ؛ إنه لا يُشعر أحداً برياسته ، ومع ذلك لا تجد أحداً فى الرحلة إلا وهو شديد الشعور بهذه الرياسة فى كل لحظة ؛ إنك لا تراه طوال الرحلة إلا كما ترى الأعضاء الذين ينطوُون على أنفسهم ولا يكادون يظهرون إلا لماما ، ومع ذلك فأنت عميق الأحساس بأنه مصدر كل حركة ومبعث كل نشاط طوال أيام الرحلة ، إنه يبدو — فى بعض الأحيان — وكأنه على غير اتصال بتيارات الرحلة واتجاهات أفرادها ، ومع ذلك فهو أشد أعضائها عرفاناً بها وسيطرة على أحداثها وتوجيهاً لتياراتها . . . إن شخصيته بما جمعت من ظرف ورقة وحزم وحكمة ، لتخلع على الرحلة بهاء وبهجة ، وتذيب فى لمح البصر كل ما من شأنه أن يعكر الصفو أو يبعث الضيق أو يقيد من طلاقة النفس وحريتها . . .

وقضينا سحابة النهار (الثلاثاء) فى محطة الأحياء البحرية لكلية العلوم بالغردقة ، وهى تقع على مرفأ جميل ممتع ؛ واتصلنا إبان النهار بأهل الغردقة نستطلع أنباءهم ، فقيل لنا إن عيون الزيت قد كادت أن تنضب ، ولهذا شدَّ الكثير من أهلها رحالهم إلى مدينة غارب الحديثة ، وذلك لا يكلف الناس كثيراً ، فانهم لا يعنون بإقامة البيوت الفخمة ولا يدفعون للأرض المقامة عليها ثمنا . ولقد فرح أهل البلد بوجودنا وتأهبوا لخدمتنا فى سذاجة بالغة ، وسألنا أحد الباعة هناك عندما عرف أننا من القاهرة عن خاله « الحاج على » ! ورد عليه أحدنا قائلا إنه بخير ويهدى إليك السلام . . ! وهم يستوردون ماء الشرب والخضروات وسائر ما يحتاجون من السويس أو قنا فى المراكب والسيارات ؛ ولهذا يكاد طعامهم وشرابهم أن يكون على قدر حاجتهم ، حتى لقد طلب إلينا مدير المحطة أن ننبئه بما نحتاج إليه من زاد قبل موعده بيوم على الأقل . . !

وحضر مجلس النار فى هذه الليلة الدكتور مشرفه بك عميد كلية العلوم

والدكتور كامل منصور أحد أساتذتها ، وبعد أن بدأت فرقة التفاريح أناشيدها بنحو دقيقتين أقدم عبد الحميد يونس ، فمال الدكتور مشرفه بك على جاره وهمس فى أذنه قائلا : إن هذا الشاب يستطيع أن يحدثك بالانجليزية بضع دقائق حديثا متصلا كله Nonsense ؛ قلت بل يستطيع أن يحدثك بالعربية بضع دقائق حديثا طويلا متصلا جذابا ممتعا كأحسن ما يكون الحديث الممتع الجذاب ، ولكنه تافه فارغ كأعذب ما يكون الحديث التافه الفارغ . وقد كان فضلا عن نشاطه الملحوظ فى إقامة الخيام وسائر ما تتطلبه المعسكرات ، روح فرقة التفاريح ومبعث الحيوية فى أعضائها ، وهو صورة ناطقة للفرقة كلها ؛ فانك حين تنصت إليهم يتحدثون فى احد الموضوعات تحس — إذا كنت حديث العهد بهم — أنهم مقدمون على حديث جدى بعناية تحملك على الانصات الى حديثهم ، وذكاء يغريك بمناقشتهم ويشوقك إلى معرفة آرائهم ، ولكنك لا تلبث حتى تعرف أن حديثهم ينتهى حيث بدأ ويبدأ حيث ينتهى ويدور فى حلقة مفرغة لا أول لها ولا آخر . . . اذكر انى كنت ذات صباح فى خيمة هذه الفرقة ، ووجّه جاك سؤالا من أسئلته ، العميقة ، فأخذوا جميعا يتعاونون على إجابته ، فقال متولى نور : آه قلت لى ليه — تعجبنى أسئلتك — ثم راح وبقية زملائه يدورون حول السؤال ويجيبون عليه إجابات يخيل إليك أنها على شىء من العمق ؛ ولبثت الحال على هذا حتى هممت بالانصراف وعاشور يقول لجاك : برده نرجع ونقول ليـــه . . ؟ فأوصيتهم بأن ينبئونى عن الرأى الذى ينتظر أن يستقروا عليه فيما بعد ، ثم تركتهم وانصرفت معجبا بمهارتهم الفذة فى هذا الصدد . . .

وإذا ذكرت البحر والغردقة طافت بخاطرى صورة الأستاذ العبادى وهو يلاطم أمواج البحر بمنكبيه العريضتين ، ويشيع الدهشة فى نفوس الأعضاء الذين أعجبهم منظر هذا المزيج من الوقار والحكمة والرزانة والهدوء وهو فى البحر يغوص حينا ويطفو أحيانا ، ويسبح على ظهره طورا

وعلى بطنه أطوارا ، وإلى جانبه الدكتور عفيفى الذى ما شك أحد حين رآه فى ثوب البحر بجسمه الرياضى السمهرى أنه سباح ماهر ممتاز ، فلما هم بالقاء نفسه فى أحضان الموج رأيناه يجلس على حافة الشاطىء ، ويرسل رجليه أولا ثم ينزل إلى البحر فى هدوء فلسفى واضح ، ثم يقف على كثب من الشاطىء متأملا « منطق » هذا الكون ، ثم يرش بالماء جسمه بيده اليمنى حتى إذا أدركها النصب استبدل بها يده اليسرى ، وهكذا حتى يترك البحر ويعود إلى ارتداء ملابسه . . . ! وعلى كثب منه ترى الدكتور نصحى منصرفا إلى معا كسة أعضاء الرحلة وهم جلوس على لسان ممتد على سطح الماء إلى مسافة بعيدة ، يغافلهم ثم يرشهم بالماء ويختفى تحت اللسان ويتلقى منهم النكات ويردها إليهم فى سرعة ملحوظة ، وعلى مقربة منه ترى الدكتور حسن عثمان يوهم الحاضرين بأنه سباح ممتاز لا يدانيه أحد حتى « كنج » خير أعضاء الرحلة قدرة على السباحة .!

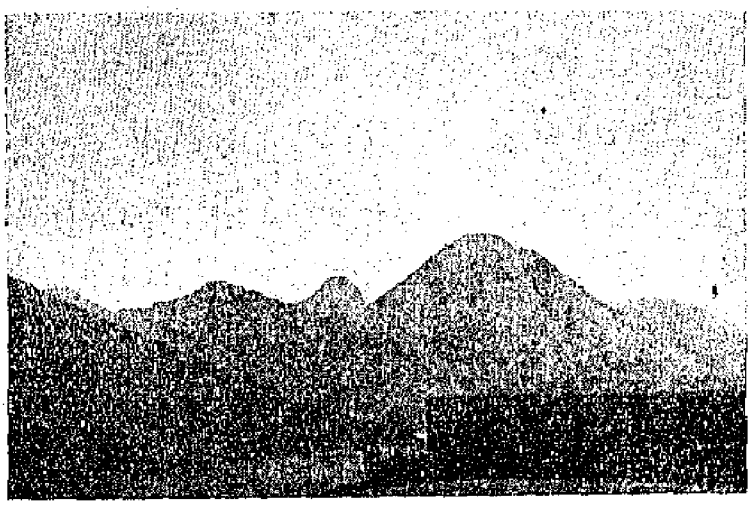

بعض المرتفعات فى المنطقة قرب جبل الدخان فى الطريق من الغردقة إلى قنا

وفى صباح الأربعاء مضت بنا السيارات إلى سفاجة ، ثم عدنا إلى الغردقة فى الخامسة مساء بعد أن شهدنا عمليات استخراج السمك ، ولبثنا بها إلى صباح الخميس ، ثم اخترقت السيارات بنا الصحراء الشرقية واسترحنا فى الطريق

أكثر من مرة ، وشهدنا المرتفعات حولنا ثم بلغنا قنا فى الثانية مساء ، وزرنا معبد دندرة وقضينا الليلة فى المدرسة الثانوية التى احتفى بنا أهلها وأحسنوا استقبالنا .

وقمنا من قنا صباح الجمعة فبلغنا البلينا فى الواحدة مساء ، وزرنا معبد سيتى الأول فى أبيدوس ؛ ثم شددنا رحالنا إلى جرجا وقضينا ليلة السبت فى مدرسة رزق الله مشرقى ، وقد لقينا من حفاوة أهلها ما أطلق ألسنتنا بمديحهم والثناء على كرمهم . وبارحنا جرجا فى صباح السبت ومضينا إلى أسيوط ومنها إلى ملوى وواصلنا سيرنا إلى تونة الجبل فبلغناها فى منتصف الليل ، وزرنا حفائر كلية الآداب بها ثم بارحناها إلى سمالوط حيث أعد لنا زميلنا زكى الشريعى — أحد أعضاء الرحلة — سماطا فاخرا فى منزله كاد بألوان الطعام التى جمعها يغرى أعضاء الرحلة على البقاء ضيوفا عنده إلى أجل غير مسمى .. ثم يممنا مصر بعد تناول الطعام فبلغناها فى الثانية عشرة من مساء يوم الأحد (٥ فبراير) .

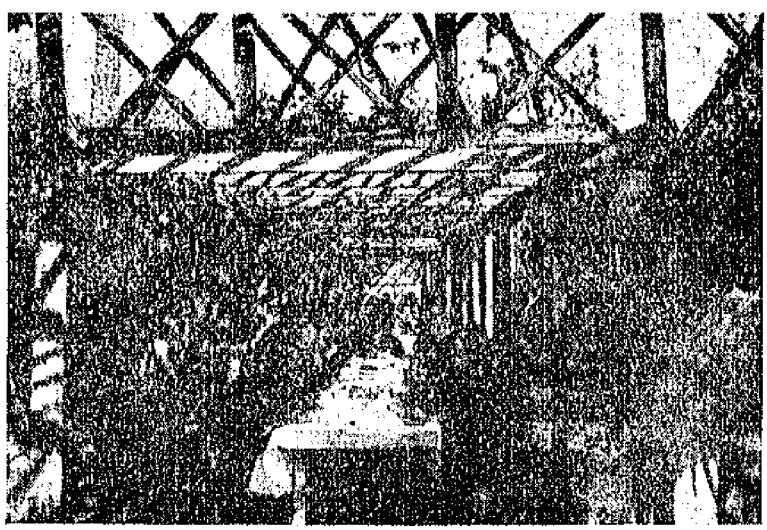

على مائدة زكى الشريعى فى سمالوط

وكانت « فرقة التفاريح » على نشاط وافر طوال هذه الليالى ، وليس أدل على نشاطها من أن تعقد مجلس النار فى تونة الجبل بعد منتصف الليل وتوالى

أغانيها حتى مطلع الفجر ..! بل ليس أدل على نشاطها من انقسامها إلى ثلاث فرق تتعاون فيما بينها على ملأ الليل بالأغانى الحلوة والأناشـــــيد الجميلة « والقفشات » الموفقة ؛ كان يتولى الأولى : يونس وراجى وعاشور ومتولى والآنسات اللاتى سيرد ذكرهن بعد قليل ؛ ويتولى الثانيـة حبيب ومختار ولويس وأنور ؛ أما الفرقة الثالثة فهى فرقة الآنسات التى نعترف إنصافا لها بأنها ملأت الرحلة حياة وبهجة ، وقد كانت تقوم بالرد على الفرقتين الأوليين ردا رفيقا وديعا ينساب فى نفس الاتجاه الذى سلكته الفرقتان الأخريان ، وكان يتولى هذه الفرقة الآنسات أمينة فهمى وبهية لطفى وسامية ورفيعة وفلور وعلية . . . وقد دربت الآنسة رفيعة وكنج فئة من أعضاء فرقة التفاريح على إنشاد كثير من الأناشيد الشامية الجميلة . . .

ومن الخير أن نشير إلى أن فرقة التفاريح قد اتخذت من زميلنا عباس راجى مادة لكثير من أناشيدها وفكاهاتها ولكنه أثبت بحزم أنه مثل طيب للشاب المهذب الظريف المرح إلى أقصى الحدود ، فقد كان يتلقى نكاتهم باسما ثم يتخذها أداة للسخرية منهم وإضحاك الحاضرين عليهم ، وقد كان موفقا فى هذا توفيقا بعيد المدى . .

وبينما كانت هذه الفرق تفيض طوال الرحلة نشاطاً وحركة وحياة ، كان بين الأعضاء فئة أخرى على وقار عظيم يكاد يوهم الرائى بأن أهله أموات ؛ أولئك هم « شلة الوقار » كما أطلقت عليهم « فرقة التفاريح » . وفى الحق إن أصدقاءنا من الطلبة مخطئون فى توجيه اللوم إلينا على عزلتنا وعدم مساهمتنا معهم فى المرح والتهريج ، فما كان هذا كبراً منا ولا غرورا . ولكنه عجز عن مجاراتكم فى لهوكم والانتظام معكم فى تياركم ، وقد جازف أحدنا — وهو خير من فينا — وانضم إليكم وغنى معكم وأمدكم بأناشيد جميلة من تأليفه فقلتم عنه فى نشيد أهل الوقار «صوته تخين ومين يتحمل..؟» فتصوروا أيها الأصدقاء أننا جميعا قد انضممنا إليكم وأطلقنا حناجرنا بالغناء فيكم . . !!

وفى الحق أيضاً أنه لو طالت أيام الرحلة قليلا لزايلنا الوقار ولازمنا التهريج .. ولا عجب فى هذا فقد كان الكثير من أهل الوقار فى اليومين الأخيرين يغنى لنفسه بصوت مسموع ، ودون مناسبة تبرر غناء ، بعض الفقرات من الأغانى والأناشيد التى كانت ترددها فرقة التفاريح ، وإن كان من الانصاف أن نقول إن هذه الفقرات كانت تغنى فى كل مرة وعلى كل لسان بتلحين جديد ...! وليس هذا بأعجب من أن تسمع أن الأستاذ العبادى بك ، وهو رمز وقار التاريخ الاسلامى كله — قد استيقظ فى صباح آخر يوم من أيام الرحلة وهو يقول : تلبتّيتاتاتا .. وهى الكلمة التى كانت تنطلق بها حناجر المهرجين إذا شاءوا « تبْويخ » المنشدين والمغنين ..!!

ومن الانصاف أن أعلن الآن بأن « شلة الوقار » كانت فى كثير من الأحيان يصيبها « التّجلى » فتتمرد على وقارها وتثور على تقاليدها ، وتعلن براعتها النادرة فى المرح ومهارتها الملحوظة فى التهريج — على ألا يراها أو يسمعها إلا أهلها — ولها فى ذلك مواقف مشهورة لا يمنعنى عن ذكرها وتفصيل أنبائها غير الوقار ..! كانت مظاهر التجلى عند أهل الوقار فى خفاء عن سائر الأعضاء ، فلم يكن أعضاء الرحلة يرون إلا أصدقاءنا عزت وعثمان والحتة... وقوفا عند سفح جبل أو على كثب من سياراتهم مكتفين بتسريح الطرف فى جمال الطبيعة وإعلان الاعجاب بنشاط « مراد غربال » وهو يتسلق الجبال ويتجول فى رحاب الصحراء فى مرح ملحوظ ، ووراءه النويهى يجر رجليه ويحاول متابعته أنى ذهب . !!

ولا ينبغى أن أفرغ الآن من الحديث عن مجالس النار قبل أن أسجل ظاهرة طريفة كانت تلوح فى كل مساء . تلك الظاهرة التى كانت ملحوظة عند الأعضاء جميعا هى الأستاذ شفيق بك فى مجالس النار بملابسه العربية القحة يتوج رأسه بعقال فاخر ويحيط جسمه بعباءة من الصوف الممتاز ، ويبدو للرائى فى رحاب هذه الصحراء التى كنا نرتادها عربيا ثرياً قحاً كأحسن

مايكون العربى الثرى الصميم ، يفترش الأرض فى مجالس النار بعباءته الفضفاضة وعقاله المحكم ويساهم مع الأعضاء فى إنشاد النشيد الوطنى وترديد الأغانى الحماسية التى تروقه فلا ندرى أنه الأستاذ شفيق بك إلا حين نلحظ « البيبة » وقد احتلت — على عادتها — مكانها من فمه ، واستوى على رجليه نجله « مراد » يشيع المرح الحلو ليلا كما كان يشيعه نهاراً ...

ونحن لانستطيع أن ننسى ما لقيناه من الأستاذ الدمرداش محمد بك مراقب الامتحانات المساعد بوزارة المعارف، الذى صحبنا فى أكثر مراحل الرحلة، وذلل لنا كثيراً من صعابها ، بخبرته ودرايته بشئون الصحراء ؛ فضلا عن أدبه الجم ، وخلقه الكريم . وكان أحياناً « يتوه » عنا أو « نتوه » عنه ، ثم مانلبث أن نلتقى .

ومن الخير أن أشير الآن إلى أن الأخ متولى نور قد أخذ للرحلة فيلماً سينمائياً بديعاً سجل فيه الكثير من مناظرها ومواقف أعضائها والأحداث التى مرت بهم طوال الطريق .

حسبى الآن هذا فقد طال الكلام ، ولا بأس من الاشارة إلى خير المقترحات التى قد تمكننا من تلافى بعض المتاعب فى مستقبلنا إذا قمنا برحلة كهذه الرحلة :

١ — يشترى مع الطعام كمية من أطباق الورق التى تباع فيها الحلوى لتستعمل مرة واحدة ثم ترمى بعد ذلك ، وبهذا نتلافى العناء فى غسل الأطباق ونتقى قذارتها — أو يستغنى عن كل مايوضع فى أطباق ويهيأ الغذاء على هيئة ساندوتش .

٢ — يعد الخدم والطهاة طعام الصباح والظهر على هيئة ساندوتش — يوزع على العربات كل صباح منعاً لضياع الوقت وضماناً لنظافة الطعام وسهولة توزيعه .

٣ — تزوَّد العربات بالأدوات التى تساعد على رفعها متى غاصت فى الرمال .

٤ — يوضع الطعام والخيام وسائر أدوات الرحلة فى « لوريات » صغيرة الحجم خفيفة الحمل لتتمكن من متابعة المسير ، وكثرة عددها لا يضيرنا كثيراً ولا قليلا . .

٥ — أن يكون الأستاذ العميد — شفيق بك غربال — رئيس كل رحلة شاقة متعبة تعتزم الكلية القيام بها . . .

. . .

هذه رحلتنا — أرجو ألا يكون الحرص على الإيجاز فى وصفها ، والعجز عن بلوغ الغاية فى تصوير أحداثها ، قد أخرس الناطق فى ألوانها وظلالها ، أو استلَّ الحياة التى كانت تتمشى فى جسمها ، وخنق الروح الذى كان ينساب فى كيانها . . . .

ث . الطويل